الآخر الديني في التصوف الإسلامي: الرؤية الخديمية نموذجا، دراسة في المواقف والمظاهر

مد فاي

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي . الجديدة/ المغرب

Abstract:

This article deals with the religious other in Islamic mysticism, taking the Khadimi 's vision as a model in the study of attitudes and manifestations.

The article aims to clarify the Islamic vision of the religious other, and that it is a monotheistic human vision that views the religious other as being human above all, with his dignity, honor and rights, and it recognizes him based on this human consideration, not a monotheistic view that sees man from a negative side such as blasphemy, atheism and polytheism, and adopting The relationship with him is based on this vision, and then rejects, excludes and abuses him.

And that the Sufi vision of the other, whatever its kind, is based on a set of human values and moral principles related in the Book and the Sunnah in terms of charity, honesty, sincerity, and so on. Moreover, the acceptance of the other and openness to it and the establishment of love, tolerance, and fairness

relationship with him regardless of his religion, race, or color, played an important role in Making many religious others accept Islam.

Khadim's vision of the religious other is derived from the Islamic vision of the world, life and man, and the global Sufi tendency. This vision appeared in many of Sheikh Khadim's relations with the French colonialists from a religious, social, and economic aspect, which can be summarized in the following: worship by monotheism and calling to it, leading with justice and charity, setting things aright (Islah) instead of spreading corruption(Fasad).

Keywords:

the religious other, Islamic religion, Islamic mysticism, Khadimi s' thought.

.

الملخص:

تتناول هذه المقالة الآخر الديني في التصوف الإسلامي آخذة الرؤية الخديمية نموذجا في دراسة المواقف والمظاهر.

وتهدف المقالة إلى بيان الرؤية الإسلامية للآخر الديني، وأنها رؤية توحيدية إنسانية ينظر إلى الآخر الديني بكونه إنسانا قبل كل شيء، له كرامته وشرفه وحقوقه فيعترفه بناء على هذا الاعتبار الإنساني، لا رؤية أحادية التي ترى الإنسان من جانب سلبي فقط من كفر وإلحاد وإشراك، وتبني العلاقة معه على أساس هذه الرؤية، ومن ثم رفضه وإقصاءه والإساءة إليه.

وأن الرؤية الصوفية للآخر كيفما كان نوعه قائمة على مجموعة من القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية الثابتة في الكتاب والسنة من الإحسان والصدق والإخلاص وغيرها، وأن قبولها للآخر وانفتاحها عليه وإقامة علاقة محبة وتسامح وعدل معه بغض النظر عن دينه أو عرقه أو لونه مما لعب دورا مهما في إسلام العديد من الآخرين الدينيين.

وأن الرؤية الخديمية للآخر الديني مستمدة من الرؤية الإسلامية للعالم والحياة والإنسان، والنزعة الصوفية العالمية، وقد ظهرت هذه الرؤية في عديد من علاقات الشيخ الخديم مع المستعمرين الفرنسيين من جانب ديني واجتماعي واقتصادي، والتي يمكن تلخيصها في العبادة بالتوحيد والدعوة إليه، والخلافة بالعدل والإحسان، والعمارة بالإصلاح بدل الإفساد.

الكلمات المفتاحية:

الآخر الديني، الدين الإسلامي، التصوف الإسلامي، الفكر الخديمي.

الآخر الديني في التصوف الإسلامي: الرؤية الخديمية[1] نموذجا، دراسة في المواقف والمظاهر

بسم الله الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

[1] . نقصد بالرؤية الخديمية تلك الرؤية المستندة إلى الفكر الخديمي، أي: (تراث العالم الرباني أحمد بن محمد بن حبيب الله السنغالي المشهور بالشيخ الخديم المتوفي سنة: (1346هـ/ 1927م).

فإنه قد تعددت الرؤى وتشعبت الأفكار والأنظار في الفكر الإسلامي عموما والتصوف الإسلامي خصوصا حول النظرة التي يجب أن تنظر إلى الآخر الديني، هل هي نظرة أحادية إلحادية أم هي نظرة توحيدية إنسانية؟، وما هي طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان المسلم والإنسان غير المسلم؟ هل هي علاقة عدائية عدوانية أم هي علاقة وسطية عدلية؟

وكيف كانت الرؤية الصوفية للآخر الديني، هل ترى إليه بعين رفض وإقصاء، أم عين قبول وإحسان؟ وكيف كان علاقة الشيخ الخديم[2] كعالم صوفي مع الآخر الديني المعاصر له والمتمثل في صورة المستعمرين الفرنسيين؟

وتأتي هذه المقالة محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات معتمدة على الرؤية الخديمية الصوفية تجاه الآخر الديني، وذلك حسب المحاول الآتية:

المحور الأول: الآخر الديني في الدين الإسلامي: المفهوم والرؤية.

المحور الثاني: الآخر الديني في التصوف الإسلامي الرؤية الخديمية نموذجا.

المحور الثالث: مظاهر الرؤية الإسلامية الصوفية للآخر الديني في الفكر الخديمي.

هذا وبالله التوفيق وعليه التكلان في الإنجاز والتحقيق.

المحور الأول: الآخر الديني في الدين الإسلامي.

1 . مفهوم الآخر الديني في الفكر الإسلامي: يطلق الآخر الديني في الفكر الإسلامي مرادا به الإنسان الذي يتدين بدين غير إسلامي؛ أي الإنسان غير المسلم، وذلك اعتماد على المصدر

[2] . هو العالم الرباني الشيخ أحمد بن محمد بن حبيب الله السنغالي المشهور بالشيخ الخديم، ولد سنة (1854م) في السنغال، وكان عالما ربانيا فقيها صوفيا، لعب دورا مهما في تحرير بلاده السنغال من الاستعمار الفرنسي، توفي سنة: (1346هـ/ 1927م)، وخلف الكثير من الإنجازات؛ أهمها: طريقته الصوفية المبنية على الإيمان بالتوحيد والإسلام بالفقه والإحسان بالتصوف، ومدينته "طُوبَى" التي تعد ثاني أكبر مدينة في السنغال بعد عاصمة "دَكَارْ" من حيث الكثافة السكانية والحالة الاقتصادية، وعديد من المؤلفات، منها: ديوانه في العلوم الدينية الجامعة لمنظوماته في العقيدة والفقه والتصوف والأخلاق، ينظر: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، لابنه الشيخ محمد البشير، وإرواء النديم من عذب حب الخديم، لتلميذه الشيخ محمد جوب الدكاني.

الأول والأساس للفكر الإسلامي القرآن الكريم الذي "أسس لهذا المفهوم وبيّن مراتبه وميز علاقاته، ومن هذا النص استمدت مختلف المدارس الفكرية والعقدية الإسلامية – قديما وحديثا – طبيعة تصورها وتحليلها لهذا الآخر الذي تفاعلت معه" سلما وحربا ومجادلة "عبر مختلف الحقب الإسلامية منذ عصر النبوة إلى زمننا الراهن"[3] حيث بين القرآن الكريم طبيعة الإنسان جميعا من غير استثناء من حيث الخلق والتعليم، والتحسين، فقال تعالى في أولى الآيات التي نزلت من كتابه العزيز: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ٥﴾ [العلق: 1-5] وفقال أيضا: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ٤﴾ [التين: 4] كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13] وبعد هذا الاعتبار للنوع الإنساني جميعا في النص القرآني صنف القرآن الكريم الناس إلى فئة مسلمة مؤمنة في مقابل فئات من الآخر الديني من فئة كافرة مشركة، وأهل كتاب من يهود ونصارى، فخاطب المؤمنين بـ(ياأيها الذين آمنوا)، وخاطب الآخر الديني بـ(ياأيها الذين كفروا) وبـ(ياأهل الكتاب) وبـ(ياأيها الذين هادوا) وغيرها من خطاب الآخر الديني في القرآن الكريم.

2 . الرؤية الإسلامية للآخر الديني:

إنّ الدين الإسلامي ينظر إلى الآخر الديني نظرة توحيدية إنسانية، ويقيم معه علاقة وسطية عدلية، أي أن الإسلام يعترف الآخر الديني ضمن الجماعية الإنسانية له كرامته وحريته وحقوقه، أثبت له كرامته وفضله فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: 70]

فالخطاب القرآني في هذه الآية عام شامل لجميع جنس بني آدم من ذكر وأنثى، مؤمن وكافر، أبيض وأسود، فالتكريم والتفضيل والإرزاق هنا ثابتة لكل الناس بظرف النظر عن الانتماءات العقدية والجنسية والعرقية. وكذلك فإن الإسلام منح للآخر الديني حرية الاعتقاد والتدين بنفي الإكراه في الدين فقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256] كما أثبت للآخر الديني حقوقه بمنع الاعتداء عليه وأمر بإقامة علاقة عدل معه حتى في زمن الحرب فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:

[3] . محمد إكيج: الاعتراف بالآخر الديني ومستلزماته الأخلاقية والحوارية، شبكة ضياء للمؤامرات والدراسات ص/4.

190] وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ٨﴾ [المائدة: 8]

فالرؤية الإسلامية للآخر الديني رؤية توحيدية إنسانية ينظر إليه بكونه إنسانا قبل كل شيء، له كرامته وشرفه وحقوقه فيعترفه بناء على هذا الاعتبار الإنساني، لا رؤية أحادية التي ترى الإنسان من جانب سلبي فقط من كفر وإلحاد وإشراك، وتبني العلاقة معه على أساس هذه الرؤية، ومن ثم رفضه وإقصاءه والإساءة إليه يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

المحور الثاني: الآخر الديني في التصوف الإسلامي الرؤية الخديمية نموذجا

1 . الآخر الديني في التصوف الإسلامي

إن التصوف الإسلامي بكونه ثمرة المبادئ الأخلاقية التي رسمها القرآن الكريم للحياة البشرية وطبقها الرسول ﷺ وصحابته الكرام في حياتهم[4]. لهو أهم الأسس الإسلامية في قبول الآخر والانفتاح عليه وإقامة علاقة محبة وتسامح وعدل معه بغض النظر عن دينه أو عرقه أو لونه، وذلك لقيام هذا التصوف الإسلامي على مجموعة من القيم الأخلاقية والمبادئ السلوكية الإيجابية المتمثلة في التحلية . بمصطلح الصوفية . بالإحسان والإخلاص والصدق والإخاء، وتزكية النفس وتطهيرها من رذائل الأخلاق من كبر وحسد وحقد وكراهية وغيرها مما يدخل في دائرة التخلية المشهورة عندهم، بالإضافة إلى كون "التصوف الإسلامي يمتاز بنزعة إنسانية عالمية منفتحة على سائر الأديان والأجناس. وإذا كان الإسلام في جوهره دينا منفتحا على كلّ الأجناس لا فرق عنده بين مسلم ومسلم يختلفان جنسا أو لغة أو مكانا أو زمانا، فإن الصوفية المسلمين قد وسعوا من الآفاق التي يستشرف إليها الإسلام، فامتدوا بها إلى الأديان الأخرى"[5].

وقد ظهرت هذه النزعة الإنسانية في التصوف الإسلامي عند عديد من الصوفيين منهم: أبو يزيد البسطامي الذي كان "يدعو الله لجميع الناس، ويلتمس منه أن يبسط رحمته على النوع البشري كله، ويود لو يشفع للناس كافة، لا للمذنبين من الأمة الإسلامية وحدهم، بل لكل

[4] . محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، ط/1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995م، ص/ 52.

[5] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، وكالة المطبوعات . الكويت، ط/1، 1975م، ص/ 27.

الخطاة بأي دينوا دانوا. ويود لو تحمل عن الخطاة جميعا العقاب، فيتسع، وجوده ليشمل النار كلها، فلا يبقى فيها موضع لغيره... فقال: إلهي! إن كان في سابق علمك أن تعذب أحدا من خلقك بالنار، فعظم خلقي فيه (أي في النار) حتى لا يسع معي غيري...

ويعبّر محي الدين ابن عربي عن هذه النزعة الكلية في أبياته المشهورة فيقول:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ فَمَرْعًى لِغَزْلَانٍ، وَدِيرٌ لِرُهْبَانِ
وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةُ طَائِفٍ وَأَلْوَاحُ تَوْرَاةٍ، وَمُصْحَفُ قُرْآنِ
أَدِينُ بِدِينِ الْحُبِّ، أَنَّى تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي"[6]

وتجب الإشارة هنا إلى أن هناك كثيرا من الباحثين انتقدوا هذا الموقف من الصوفية واعتبروه انحرافا لكونه في رأيهم [عقيدة تدعو إلى وحدة الأديان والنظر إلى كل العقائد المختلفة نظرة حبّ ورضى وقبول][7]، وذلك أن مثل هؤلاء الباحثين لا زالوا يملكون الرؤية الأحادية للأشياء التي لا تري الأشياء إلا من جانب سلبي بدل الرؤية التوحيدية، فحين ينتقد د. عدنان محمد أمانة ابن عربي بأبياته تلك، ويقول: من "العجب أن يقال هذا الكلام وينشر في زحمة الحروب الصليبية"[8]، فهلا نظر إلى الدور المهم الذي لعبه محي الدين ابن عربي في حثّ سلاجقة الروم على محاربة الصليبيين[9]. فانفتاح الصوفيين "على كل التجارب الدينية الإنسانية، وتعاطفهم مع سائر التيارات الروحية، واستشعارهم للأخوة الإنسانية الجامعة بين الناس جميعا على اختلاف الأزمنة والأمكنة[10]، جعلهم يتمكنون [من نشر الإسلام والإصلاح بين عديد من الطوائف المختلفة المقاتلة في كثير من بلدان العالم، في الهند وفي إفريقية السوداء جنوب الصحراء: السنغال، ومالي، والنيجر وغينيا وغانا ونيجريا وتشاد، حيث يرجع إسلام الشطر الأكبر من هذه البلدان إلى الطرق الصوفية، خصوصا التجانية والسنوسية والشاذلية... فاختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلدان وعيشهم بين العامة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى والصلاح، إلى جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية وألوان

[6] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص/ 27 . 28.
[7] . عدنان محمد أمانة: التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط/1، 1424هـ، ص/ 230.
[8] . عدنان محمد أمانة: التجديد في الفكر الإسلامي، ص/ 230.
[9] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص/ 27.
[10] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص/ 30.

من البر والإحسان والمؤاخاة... هو الذي جعل العديد من الآخرين الدينيين من مختلف أجناس سكان العالم وشعوبهم يعتنقون الإسلام، وليس التعصب المستبد للغزاة (المسلمين) الذين كانوا يتكلمون لغة أخرى أجنبية][11].

فالصوفي الحقيقي بسبب صفاء قلبه وتجرده عن كل ما سوى الله يكون مثل الأرض في قبول كل إنسان والإحسان إليه؛ من مؤمن وكافر وكريم ولئيم وبر وفاجر كما أشار الجنيد حين سئل عن الصوفي فقال: "الصوفي كالأرض: يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح... يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يظلّ كلّ شيء، وكالقطر يسقي كلّ شيء"[12] فنظمه الشيخ الخديم في منظومته "مسالك الجنان" قائلا:

وَالْحَاصِلُ الصُّوفِيُّ عَالِمٌ عَمِلْ بِعِلْمِهِ حَقِيقَةً وَلَمْ يَمِلْ

فَصَارَ صَافِيًا مِنَ الْأَكْدَارِ مُمْتَلِئَ الْقَلْبِ مِنَ الْأَفْكَارِ

مُنْقَطِعًا لِرَبِّهِ مِنَ الْبَشَرْ مُسَوِيًا دينَارَ عَيْنٍ بِالْمُدَرْ

كَالْأَرْضِ يُرْمَى فَوْقَهَا كُلَّ قَبِيحْ وَلَا تَرَى فِي بَطْنِهَا إِلَّا مَلِيحْ

يَطَأُهَا الْكَرِيمُ وَاللَّئِيمُ وَالْبَرُّ وَالْعَاصِي وَيَسْتَدِيمُ

وَكَالسَحَابِ وَكَقَطْرِ الْمَاءِ فِي الظِّلِ وَالسَقْيِ بِلَا اسْتِثْنَاءِ

وَمَنْ يَكُنْ كذَا فَهْوَ صُوفِي أَوْ لَا فَذُو دَعْوَى عَلَى الْمَعْرُوفِ[13]

فمثل هذا الإنسان المؤمن المسلم المسحسن يسهل عليه قبول الآخر الديني، وإقامة علاقة تكامل وتكافل وحب وبر وإحسان معه، وقد أجاز الله تعالى للمسلم مثل هذه العلاقة تجاه الآخر المسالم فقال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة: 8].

2 . الرؤية الخديمية للآخر الديني

[11] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص/ 25 . 26.

[12] . عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص/ 15 . 16.

[13] . الشيخ الخديم: ديوان العلوم الدينية، منظومة مسالك الجنان، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/ 1، 2020م، دار الأمان– المغرب الرباط، ص/ 337.

نقصد بالرؤية الخديمية تلك الرؤية المستندة إلى الفكر الخديمي . (تراث العالم الرباني أحمد بن محمد بن حبيب الله السنغالي) . والذي هو جزء من الفكر الإسلامي الذي هو "كل ما أنتجه فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا"[14].

من هنا يستمد الفكر الخديمي رؤيته للآخر الديني من الرؤية الإسلامية للعالم والحياة والإنسان، ومن النزعة الإنسانية العالمية للتصوف الإسلامي، والتي هي عبارة رؤية توحيدية ربانية تستند إلى القرآن الكريم الدستور الأساس الشامل والجامع لجميع جوانب الكون بما فيه الإنسان وغيره.

وتختص الرؤية الخديمية للآخر الديني بكونه رؤية إنسانية توحيدية، وإسلامية صوفية، تنظر إلى الإنسان بشكل عام نظرة حب ورحمة وحنان، لذا نرى الشيخ الخديم في دعواته وابتهالاته يخاطب ربه طالبا منه أن يبسط رحمته لجميع الناس شأن البسطامي فيقول:

يَا مَالِكَ الْمُلْكِ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ قَوَدٍ ارْحَمْ جَمِيعَ الْوَرَى يَا هَادِيًا رَدَآ[15]

وأبرز ما يوضح الرؤية الخديمية للآخر الديني هو علاقته بالمستعمرين الفرنسيين الذين كانوا يقتلون أبناء بلاده وينهبون ثرواتهم، وأخرجوه من بلاده هو متهما إياه بالجهاد المسلح فردّ عنهم مبينا أن جهاده سلمي معنوي بالعلوم وبالتقى، وسلاحه فيه الإسلام ومكوناته من توحيد وتصوف، ومصادره من القرآن والحديث فقال:

يَا جُمْلَةً قَدْ ثَلَّثُوا بِضَـلَالِهِمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدٌ لَهُ أَوْ وَالِدُ

أَخْرَجْتُمُونِي نَاطِقِينَ بِأَنَّنِي عَبْدُ الْإِلَـهِ وَإِنَّنِي لَمُجَاهِدُ

وَمَقَالُكُمْ إِنِّي أُجَاهِدُ صَادِقٌ إِنِّي لِوَجْهِ اللهِ جَلَّ أُجَاهِدُ

إِنِّي أُجَاهِدُ بِالْعُلُومِ وَبِالتُّقَى عَبْدًا خَدِيمًا وَالْمُهَيْمِنُ شَاهِدُ

---

[14] . محسن عبد الحميد: **تجديد الفكر الإسلامي**، ط/1، ص/41.

[15] . محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/1، 2017م، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، ص/ 160.

سَيْفِي الَّذِي يُفْرِي طِلَى مَنْ ثَلَّثُوا تَوْحِيدُهُ فَهْوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ

وَمَدَافِعِي الَّتِي بِهَا أُنْفِي الْعِدَى وَبِهَا يُفَارِقُنِي عَنِيدٌ قَاصِدُ

ذِكْرٌ حَكِيمٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ مِمَّنْ يُزَحْزِحُ مَا يُرِيدُ الْمَارِدُ

أَمَّا رِمَاحِي فَالْأَحَادِيثُ الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ الْمَاحِي وَنِعْمَ الْوَارِدُ

وَبِهَا أُزَحْزِحُ بِدْعَةً قَدْ أَحْدَثُوا وَبِهَا يُلَازِمُنِي سَعِيدٌ عَابِدُ

أَمَّا الْفُرُوعُ فَأَسْهُمٌ قَدْ حُدِّدَتْ لِحَدِيثِهِ إِنَّ الْفُرُوعَ زَوَائِدُ

أَمَّا الَّذِي يَتَجَسَّسُ الْأَسْرَارَ لِي فَتَصَوُّفٌ صَافٍ جَلَاهُ أُمَاجِدُ

إِنْ كَانَ لِلْأَعْدَاءِ أَسْلِحَةٌ بِهَا خِيفُوا فَأَسْلِحَتِي تِهِ وَأُجَاهِدُ

وَبِهَا يُفَارِقُنِي شِرَارٌ ثَلَّثُوا وَتَنَازَعُوا وَالْكُلُّ مِنْهُمْ حَاسِدُ

وَبِكَوْنِ رَبِّي لِي أُكُونُ مُوَحِّدَا مَنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدٌ لَهُ أَوْ وَالِدُ][16]

فقبول الشيخ الخديم للآخر الدينى وحسن معاملته معه هو ما جعل حاكما فرنسيا مثل أَنْطُوَانْ لَاسِيفْ[17] يشهد في حقه ما هو أقرب وأشبه بالمدح من رجل عدو في السلطات الإستعمارية، ذلك أنه لما حار المستعمرون الفرنسيون عن أمر الشيخ الخديم عيّنوا هذا الحاكم كمراقب ليتجسس عن حاله، ويكتب تقريرا كاملا عن أحواله، يقول عنه الشيخ محمد البشير "كان القصد من توليته أن يسبر عن حال شيخنا رضي الله عنه ويقلّب أمره ظهرا لبطن ليقف على كنهه وحقيقته، ويحرك قلبه ويحمله على إرادته، متسلحا بكل سلاح من السلطة والنفاسة ليخرج لحكومته دروسا صحيحة عنه، تقطع بثبوته وامتناع تبدله ما دام الإنسان إنسانا. فهجم

[16] – عامر صمب: الأدب السنغالي العربي، ط/1، الشركة الوطنية –الجزائر، 1979م، (265/2 . 266).

[17] . هو: أَنْطُوَانْ لَاسِيفْ، كان حاكما في جُرْبِلْ، عينه المستعمرون كمراقب ليكتب تقريرا عن الشيخ الخديم وأحواله، كان حاكما شرس الطباع أشبه شيء بالصفراويين بين ذوي الأمزجة الحادة، قوي العارضة، شديد الشميكة جهير الصوت، خفيفا نشيطا لا يكلّ أمره إلى غيره ولا يخادع ولا يحابي، ولا يظهر خلاف ما أضمر، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ. ينظر: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، محمد البشير امباكي (297/1).

بعدّته هذه عليه، عليه رضوان الله تعالى يناديه في أوان الحرّ والحرور، والقرّ والزمهرير، وربّما يأتيه هو بنفسه في عقر داره بغتة. وقد تبلغ به الشراسة أن يقدم أحد أبنائه يكسر الأبواب ويقدّ البناء، لأنّه لابدّ له أن يراه في هيئته الخلوية من غير علم به، وقد تسور داره يوما ليعرف ما ذا يكون عليه وهو في حاله العادي. ولم يعثر قطّ على ريبة ولم يلفه يوما ما فارغا أو في تدبير دنيوي، إما أن يجده كاتبا أو تاليا أو في عمل آخر من أعمال البرّ... إنّه لم يلبث أكثر من ثلاثة أشهر في حكومته حتى جعل يكتب في صكوك سرّه للحكومة العليا في انْدَرْ أنه سبر الشيخ رضي الله عنه وأزعجه وفتنه وبلا غائر حقائقه، فلم يجد منه إلّا رجلا كلّه ديانة إسلامية. وكان يقول: **((إنّ في هذا الشيخ قوّة غير مكتسبة ولا تدرك العقول مادّتها في التسلّط على العواطف، وأن طواعية الخلق له خارقة للعادة، ومحبّتهم إياه تعميهم وتصّمهم، كأنّ معه نور نبوة وأمر سماوي، كما نقرأ في قصص الأنبياء مع أممهم إلّا أنّ هذا من سلامة الصدر وطيب الخاطر وحب الخير للعدو والصديق بمكان يحسده عليه كلّ متقدم مهما كانت فضيلته وتقواه وكمال قبوله في البرية، فأظلم الناس وأجهلهم بحقائق الإنسان أولئك الذين رموه بما هو بريئ منه من التّهم وحبّ الظهور وتمني الملك. فأنا أعرف أن الأنبياء والأولياء الذين جاهدوا كلّهم، ظهر بضميره ولم يتهيأ لهم من القوة نصف ما تمّ عند هذا الشيخ من قوّة"**[18].

فلو كانت الرؤية الخديمية للآخر الديني رؤية رفض وإقصاء وإساءة لما صدر مثل هذه الشهادة من مستعمر فرنسي، والفضل ما شهدت به الأعداء.

المحور الثالث: مظاهر الرؤية الإسلامية الصوفية للآخر الديني في الفكر الخديمي

إنه لما تقرر أن الرؤية الإسلامية الصوفية للآخر الديني رؤية إعترافية إنسانية، لا رؤية تمييزية عنصرية وذلك بناء على نصوص الوحي التي ألغت كل تلك التمييزات والتفضيلات بين البشر، وأقام بدلها معيارا واحدا للتفضيل ألا وهو التقوى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ١٣﴾ [الحجرات: 13]، فإنه قد دأب المسلمون عامة والصوفيون خاصة على تبنى هذه الرؤية للآخر الديني وتجلت مظاهرها في التاريخ الفكر الإسلامي على مر العصور، والفكر الخديمي لم يشكل استثناء عن هذا المسار، حيث نجد في علاقات الشيخ الخديم مع المستعمرين الفرنسيين ما يجسد هذه الرؤية الإسلامية الصوفية للآخر الديني في عديد من من المظاهر في الجوانب الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها:

المظهر الأول: في الجانب الديني: دعوة الشيخ الخديم للآخر الديني إلى الدين الإسلامي:

---

[18] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، ت/ د.محمد شقرون، مر/ أكاديمية منن الباقي القديم، ط/2، دار المقطم . القاهرة، 2017م، (1/297 . 299).

إن أول موقف يطلبه الإسلام من المسلم تجاه الآخر الديني هو دعوته إلى اعتناق الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى فيقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: 125] ويقول أيضا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46] وامتثالا للأمر الرباني سلك الشيخ الخديم هذا المنهج المبارك وكان يخاطب الآخر الديني من أهل الكتاب من المستعمرين النصرانيين واليهود وغيرهم ويطلب منهم التوبة من الكفر والتشريك قائلا لهم:

تُوبُوا إِلَى الْغَفَارِ مُسْلِمِينَا قَبْلَ مَجِيئِ الْمَوْتِ مُحْسِنِينَا

إِنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتُعِينُوا الدِّينَا وَتَتْبَعُوا الْمُشَفَّعَ الْأَمِينَا

انْصَرِفُوا لِلْغَيْرِ فِي الدَّارَيْنِ وَرَاقِبُوا الْعَارَيْنِ وَالنَّارَيْنِ

قُلْتُ وَرُفْقَتِي رِجَالُ بَدْرِ أُخَاطِبُ الْأَعْدَاءَ أَهْلَ الْغَدْرِ

رُومُوا إِمَالَةَ الْقُلُوبِ لِلْأَحَدْ أَهْلَ الْكِتَابِ وَلْتُفَارِقُوا الْعَدَدْ

وَيْلٌ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينْ فَبَادِرُوا لَهُ وَفَارِقُوا اللَّعِينْ

مَنْ لَمْ يَتُبْ لِلّهِ يَا نَصَارَى مُثَلِّثًا فَسَيُلَاقِي النَّارَا

تُوبُوا لَهُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدْ لِآخِرِ السُّورَةِ مِنْ ذَاكَ الْعَدَدْ.

تُوبُوا لَـهُ بِدِينِهِ الْإِسْـلَامِ دِينِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْإِمَامِ[19]

فموقف الشيخ الخديم من الآخر الديني في الجانب الديني يتلخص في إبطال عقيدتهم ودعوتهم إلى اعتناق الدين الإسلامي والتوبة من الكفر والشرك والتثليث.

المظهر الثاني: في الجانب السياسي: موقف الشيخ الخديم من الحرب العالمية الأولى:

[19] . محمد المرتضى امباكي: المريدية: الحقيقة والواقع وآفاق المستقبل، ن/ مؤسسة الأزهر الإسلامية بالسنغال، ط/1، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، 2012م، ص/ 224 . 225.

يقول ابن الشيخ الخديم الشيخ محمد البشير في كتابه "منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم" متحدثا قصة وفد الاستعماري الفرنسي إلى الشيخ الخديم طالبا منه مشاركة أتباعه في الحرب العالمية الأولى: "فإني لم أزل أتذكر يوم أتاه نائب السنغال "بليز جَانْج (Blaise Diagne) معه موظفون حربيون وقد قلدته الدولة الفرنسوية، الجمهورية العامة بحضور حاكم جُرْبَلْ في أوان اشتداد سعير لظى الحرب العامة الكبرى، يكلف ببعث العساكر وحشد الجنود. فقابلهم مقابلة وجهت أحوالهم بها إلى رؤساء المريدين من تلاميذه الكبار، لأنه ليس من شأنه الخوض في هذه الأمور الدنيوية، لا لنفسه ولا لغيره، فخرج رجال الدولة من عنده مسلّمين لما قال...فقال رئيسهم "بليز جَانْج(Blaise Diagne) لا أرى لنا إلا الاجتماع بهؤلاء الذين أشار لنا بلقائهم؛ يعني كبار المريدين، فإنّهم هم الذين يوجد للدنيا حظ... فما هو إلا أن حصل الاتفاق بينهم وبين الرؤساء، فحصّلوا لهم أغراضهم بكل سهولة"[20].

يجدر التنبيه إلى أن هناك "جملة من الباحثين انتقدت موقف الشيخ الخديم في عدم اعتراضه على إرسال مُريديه للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، فهؤلاء يرون أن هذه الحرب لا ناقة للسناغلة فيها ولا جمل، بل هي قضية فرنسية استعمارية أوروبية بحتة.

ولكن يمكن تبرير عدم رفض الشيخ بأنه كان لنصرة شعب مستذل وقع آنذاك في قبضة العدو النازي) ألمانيا (الذي نجح في ضم إقليمي (Lorraine) واللورين (L'Alsace) الألزاس تحت سيادته إثر هزيمة فرنسا النكراء أمامه"[21].

وهذا مظهر من مظاهر الرؤية الإسلامية الصوفية التي هي رؤية توحيدية إنسانية تحث على نصرة المظلوم مطلقا، اعترافا للكرامة الإنسانية كيفما كان جنسه أو لونه أو دينه.

بالإضافة إلى أنه خطوة سياسية مهمة في مصلحة السنغال ذلك "أن ظروف العصر في تلك الآونة الحرجة من تاريخ السنغال تقتضي وتسمح لتبني موقف مماثل، وذلك لأن جزءا كبيرا من أرض السنغال في ذلك الوقت كان تابعا لدولة فرنسا الاستعمارية، وهذا الجزء هو ما كان يُعرف بالدوائر أو الأقاليم الأربعة (Les quatre communes) **سانت لويس، غوري، دكار، روفسك)** وذلك كان بموجب القرار الفرنسي الصادر في 26 يوليو 1884م الذي يخُول للرعايا الفرنسيين السود التي كانت تقطن هذه الأقاليم الأربعة **حق المواطنة الفرنسية،**

[20] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (2/432 . 433).

[21] . محمد غالاي انجاي: الشيخ أحمد بمبا سبيل السلام، ط/2، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، 2021م، ص/ 158.

أي الجنسية الفرنسية– والذي تم بموجبه دخول "قانون5 أبريل 1884م" في حيز التنفيذ بالنسبة للمستعمرات الفرنسية، الأمر الذي خول لكل من تلكم الأقاليم التي كانت تابعة لها جميع الحقوق تقريبا التي تتمتع بها الأقاليم الموجودة بفرنسا"[22].

المظهر الثالث: في الجانب الاقتصادي: مساهمة الشيخ الخديم في انبعاث نقد (فَرَانْكُ FRANC):

يقول عمر بَهْ في كتابه "أحمد بمبا في مواجهة السلطات الاستعمارية": "في سنة (1926) زمان الحملة المساهمة التبرعية للمساعدة في انبعاث FRANC، الشيخ قدم وحده عطاء بقيمة Francs (500 000) في حين أن مجموع مساهمة المستعمرين في السنغال بالكاد يتجاوز عن (3 مليون فَرَانْكُ)"[23].

أي أن الشيخ الخديم تبرع بسدس ما تبرعه السلطات الاستعمارية لانبعاث قيمتهم النقدية، التي فيها نهضة لمستواهم الاقتصادي، هذا هو عين الإحسان إلى الإنسان، وكمال الاعتراف للآخر الديني، علما أن الشيخ الخديم في ذلك الوقت كان في قبضة المستعمرين تحت إقامة جبرية في جُرْبِلْ.

هذا غيض من فيض مظاهر الرؤية الإسلامية الصوفية للآخر الديني في الفكر الخديمي في جوانبه الدينية والسياسية والاقتصادية، وهي رؤية إنسانية توحيدية وسطية عدلية، ترد الاعتبار للإنسان، وتنظر إليه نظرة إحسان وإخاء لا نظرة إساءة وعداء، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة: 8].

الخاتمة:

لقد تناولت هذه المقالة الآخر الديني في التصوف الإسلامي آخذة الرؤية الخديمية نموذجا في دراسة المواقف والمظاهر، مستهلة الحديث عن الآخر الديني في الدين الإسلامي مفهوما ورؤية في المحور الأول، ثم تطرقت إلى الآخر الديني في التصوف الإسلامي عموما والفكر الخديمي خصوصا، وذلك في المحور الثاني، وأخيرا خلصت المقالة إلى مظاهر الرؤية

[22] . محمد غالاي انجاي: مقال بعنوان: موقف الشيخ الخديم من الحرب العالمية الأولى، بروكسيل، 2010م.

[23] . Oumar Ba, Ahmadou Bamba face aux autorités coloniales (1889 – 1927), p/ 8.

الإسلامية الصوفية للآخر الديني في الفكر الخديمي في محوه الأخير وتوصلت إلى مجموعة من النتائج أهمها ما يلي:

1 . إن الرؤية الإسلامية للآخر الديني رؤية توحيدية إنسانية ينظر إليه بكونه إنسانا قبل كل شيء، له كرامته وشرفه وحقوقه فيعترفه بناء على هذا الاعتبار الإنساني، لا رؤية أحادية التي ترى الإنسان من جانب سلبي فقط من كفر وإلحاد وإشراك، وتبني العلاقة معه على أساس هذه الرؤية، ومن ثم رفضه وإقصاءه والإساءة إليه.

2 . إن التصوف الإسلامي بكونه قائما على مجموعة من القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية الثابتة في الكتاب والسنة من الإحسان والصدق والإخلاص وغيرها، لهو أهم الأسس الإسلامية في قبول الآخر والانفتاح عليه وإقامة علاقة محبة وتسامح وعدل معه بغض النظر عن دينه أو عرقه أو لونه مما لعب دور مهما في إسلام العديد من الآخرين الدينيين.

3 . إن الرؤية الخديمية للآخر الديني مستمدة من الرؤية الإسلامية للعالم والحياة والإنسان، والنزعة الصوفية العالمية، والتي هي عبارة عن رؤية توحيدية إنسانية ربانية تستند إلى القرآن الكريم الدستور الأساس الشامل والجامع لجميع جوانب الكون بما فيه الإنسان وغيره.

4 . إن أهم الجوانب التي تظهر فيها الرؤية الخديمية للآخر الديني هي: الجانب الديني المتمثل في الدعوة إلى اعتناق الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، والجانب الإنساني الذي ظهر في نصرة المظلوم وإغاثة المستغيث، وكذلك الجانب الاجتماعي الاقتصادي الذي جزء لا يتجزء من عمارة الأرض، وجماع ذلك هو العبادة بالتوحيد والدعوة إليه، والخلافة بالعدل والإحسان، والعمارة بالإصلاح بدل الإفساد.

أما التوصيات التي أقدمها في ختام هذا البحث فتتمثل فيما يلي:

١ – ضرورة تبني المسلمين الرؤية الإسلامية للآخر الديني في معاملاتهم معه لإقامة علاقة إنسانية تكاملية في تبادل المعارف والعلوم والاستفادة بثمار هذه المعارف والعلوم في جميع مجالات الحياة.

٢ – الاعتراف بالجهود التي بذله المتصوفون المسلمون في نشر الدين الإسلامي وخاصة في بلدان الغرب الإفريقي التي يرجع إسلام أكثر الآخرين الدينيين منهم إلى طرق الصوفية من القادرية والتجانية والشاذلية وغيرها.

٣ – الاستفادة بالرؤية الخديمية للآخر الديني وخاصة في الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتي هي رؤية إنسانية توحيدية وسطية عدلية، ترد الاعتبار للإنسان، وتنظر إليه نظرة إحسان وإخاء لا نظرة إساءة وعداء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته وسلما تسليما.

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص

1 . الأدب السنغالي العربي، عامر صمب، ط/1، الشركة الوطنية –الجزائر، 1979م.

2 . إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/1، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، 2017م.

3 . الشيخ أحمد بمبا سبيل السلام، محمد غالاي انجاي، ط/2، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، 2021م.

4 ـ الاعتراف بالآخر الديني ومستلزماته الأخلاقية والحوارية، محمد إكيج، شبكة ضياء للمؤامرات والدراسات.

5 . تاريخ التصوف الإسلامي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات . الكويت، ط/1، 1975م.

6 . تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد، ط/1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995م.

7 . ديوان العلوم الدينية، الشيخ الخديم، منظومة مسالك الجنان، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/1، دار الأمان– المغرب الرباط، 2020م.

8 . المريدية: الحقيقة والواقع وآفاق المستقبل، محمد المرتضى امباكي، ن/ مؤسسة الأزهر الإسلامية بالسنغال، ط/1، مطبعة المعارف الجديدة . الرباط، 2012م.

9 . منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، محمد البشير امباكي، ت/ د.محمد شقرون، مر/ أكاديمية منن الباقي القديم، ط/2، دار المقطم . القاهرة، 2017م.

10 . موقف الشيخ الخديم من الحرب العالمية الأولى، محمد غالاي انجاي، بروكسيل، 2010م.

11 . (Ahmadou Bamba face aux autorités coloniales Oumar Ba 1889 – 1927).